

النِّفَاقُ

عناصر الموضوع

٢٨٦	مفهوم النفاق
٢٨٧	النفاق في الاستعمال القرآني
٢٨٨	الألفاظ ذات الصلة
٢٩١	أنواع النفاق
٢٩٥	صفات المنافقين
٣٠٤	مظاهر النفاق
٣١٠	طريقة التعامل مع المنافقين
٣١٤	خطر النفاق والمنافقين على الأمة
٣١٧	وعيد الله عز وجل للمنافقين

مفهوم النفاق

أولاً: المعنى اللغوي:

اختلف علماء اللغة في أصل النفاق، فقيل: إن ذلك نسبة إلى النفق وهو السرب في الأرض؛ لأن المنافق يستر كفره ويغيبه، فتشبه بالذي يدخل النفق يستتر فيه. وقيل: سمي به من نافقاء اليربوع، فإن اليربوع له جحر يقال له: النافقاء، وآخر يقال له: القاصعاء، فإذا طلب من القاصعاء قصع فخرج من النافقاء. كذا المنافق يخرج من الإيمان من غير الوجه الذي يدخل فيه^(١).

يقول ابن منظور رحمه الله: النفاق بالكسر فعل المنافق والنفاق الدخول في الإسلام من وجه والخروج عنه من آخر مشتق من نافقاء اليربوع. وقد نافق منافقةً ونفاقاً، وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وهو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه وإن كان أصله في اللغة معروفاً يقال: نافق ينافق منافقةً ونفاقاً وهو مأخوذ من النافقاء لا من النفق وهو السرب الذي يستتر فيه لستره كفره^(٢).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

النفاق في الاصطلاح الشرعي: هو إظهار القول باللسان أو الفعل بخلاف ما في القلب من القول والاعتقاد^(٣).

يقول الجرجاني رحمه الله في تعريف النفاق: هو إظهار الإيمان باللسان وكتمان الكفر بالقلب^(٤).

إذن فالمنافق في الشرع هو الذي يظهر غير ما يبطن. فإن كان الذي يخفيه التكذيب بأصول الإيمان فهو المنافق الخالص، وإن كان الذي يخفيه غير الكفر بالله وكتابه ورسوله، وإنما هو شيء من المعصية لله، فهو الذي فيه شعبة أو أكثر من شعب النفاق.

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٠٢، النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ٩٨/٥، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ٢٨٦/٣.

(٢) لسان العرب ٣٥٧/١٠.

(٣) انظر عارضة الأحوذ ٩٧/١٠.

(٤) التعريفات، الجرجاني ص ٣١١.

النفاق في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نفاق) في القرآن الكريم (١١١) موضعاً، يخص موضوع البحث منها (٣٧) موضعاً^(١).

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ [آل عمران: ١٦٧]
المصدر	٣	﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٧]
اسم الفاعل	٣٢	﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَتُ﴾ [الحديد: ١٣]

وجاءت كلمة النفاق في القرآن بمعناها اللغوي، وهو: إظهار الإيمان وإخفاء الكفر^(٢).

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٧١٦-٧١٧.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان، ص ١٧٧، نزهة الأعين التواظر، ابن الجوزي، ص ٣٠٨، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص ٢٢٧-٢٢٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الكفر:

الكفر لغة:

الستر والتغطية، يقال لمن غطى درعه بثوب: قد كفر درعه، والمكفر: الرجل المتغطي بسلاحه، وهو ضد الإيمان، لأنه تغطية للحق^(١).

الكفر اصطلاحاً:

«الجحود بالوحدانية أو النبوة، أو الشريعة، أو بثلاثتها»^(٢).

الصلة بين الكفر والنفاق:

والكفر توأم النفاق، والكفر إذا ذكر مفرداً في وعيد الآخرة دخل فيه المنافقون كقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وأمثال هذه النصوص كثير في القرآن.

ثم قد يقرن «الكفر بالنفاق» في مواضع، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَن إِذَا سَمِعْتُم مَّآيَةَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَاسْتَهْزَأَ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْكَرُوا إِذَا مَاتُوهُمْ أَنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

والإيمان والنفاق ضدان لا يجتمعان، وليس بينهما نطاق مشترك، بل يختلفان كل الاختلاف من حيث الأصل والطبيعة والأثر، فإن زادت مادة الإيمان في القلب قل معها أثر النفاق، كالكوب الفارغ يصب فيه الماء، فكلما زادت نسبتة خرج الهواء الذي كان يملأ الكوب، حتى يمتلئ تماماً. كذلك العلاقة بين الإيمان والنفاق، يتزود الإنسان بالعمل الصالح الذي يزكي نفسه، ويظهر روحه، فتخبو جمرة النفاق حتى تنطفئ وتلاشى.

٢ الرياء:

الرياء لغة:

يقال: فلانٌ (مراءٍ)، وقومٌ (مراؤون)، والاسم (الرياء) يقال: فعل ذلك رياءً وسمعةً،

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١٩١/٥.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٧٩، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٧٩١/٢.

إظهار غير ما في الباطن ^(١).

الرياء اصطلاحًا:

العمل لرؤية الناس والسمعة لأجل سماعهم ^(٢).

وقيل الرياء: أن يعمل المرء العمل ظاهره أنه لله؛ ولكنه في الباطن يريد به مدح الناس له.

الصلة بين الرياء والنفاق:

أن النفاق إظهار الإيمان مع إبطان الكفر. والرياء إظهار الطاعة مع إبطان المعصية ^(٣).

والرياء مدخل من مداخل الشرك، كما جاء في الحديث القدسي: (قال الله تبارك وتعالى

أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه) ^(٤).

قال النووي: «ومعناه أنا غني عن المشاركة وغيرها، فمن عمل شيئاً لي ولغيري لم أقبله،

بل أتركه لذلك الغير. والمراد: أن عمل المرائي باطل لا ثواب فيه، ويأثم به» ^(٥).

٣ الإيمان:

الإيمان لغة:

الإيمان في اللغة يراد به معنيان، يظهر معناهما بحسب السياق وهما: الأمن وضده

الخوف، والتصديق وضده التكذيب، والمعنيان متداخلان ^(٦).

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى معنى لغوياً آخر للإيمان؛ وهو أن يكون الإيمان

بمعنى الإقرار؛ لا مجرد التصديق، والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق، وعمل القلب

الذي هو الانقياد ^(٧).

الإيمان اصطلاحًا:

«التصديق الجازم، والاعتراف التام بجميع ما أخبر الله ورسوله عنه في القرآن والسنة،

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ١١٥، لسان العرب، ابن منظور ٣٥٩/١٠.

(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبد الله ص ٤٥٢.

(٣) لباب التأويل، الخازن ٣/٣٩.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله. عن أبي هريرة

رضي الله عنه، رقم ٢٩٨٥.

(٥) شرح صحيح مسلم، النووي ٣٧٠/٩.

(٦) انظر: الصحاح، الجوهري ٥/٢٠٧١، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ١٥١٨، لسان العرب،

ابن منظور ٢١/١٣، المفردات، الأصفهاني ص ٩٠.

(٧) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/٢٩١، الإيمان، حقيقته، خوارمه، نواقضه، عند أهل السنة

والجماعة، عبد الله بن عبد الحميد ص ١٩-٢١.

وأمر بالإيمان به؛ والانقياد له ظاهراً وباطناً^(١).
فهو قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية^(٢)؛ «ويشمل عقائد الإيمان، وأخلاقه، وأعماله»^(٣).

الصلة بين الإيمان والنفاق:

لوجود صلة قوية بين الكفر والنفاق والإيمان، من حيث التقارب والتضاد، ذكر الله تعالى في صدر سورة البقرة وصفا مفصلاً للمؤمنين والكفار والمنافقين. فذكر في المؤمنين أربع آيات. وفي الكفار آيتين. وفي المنافقين ثلاث عشرة آية. ولذلك أسبابه، فالمؤمن ظاهر الإيمان في نفسه وعمله، مخلص لله ورسوله لا يشك في أمره، والكافر قد جاهر بالعداء معلنا الحرب باليد واللسان من دون موارد، أما المنافق فهو الذي يشكل أمره على الناس حين يظهر خلاف ما يبطن فتكاد صفاته تعمى على الناظر. فبين الإيمان والنفاق علاقة تضاد.

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، السعدي ص ٤١.

(٢) انظر: العقيدة الواسطية، ابن تيمية ص ١٦١.

(٣) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، السعدي ص ٤١.

مصيبرهم في الآخرة قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

وقوله عز وجل ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨].

وقوله سبحانه ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

﴿يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَوْمًا لَّمْ يَئْتَلُوا وَمَا تَعْمَلُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعْذَبْنَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٣ - ٧٤].

فهذه الآيات الكريمة تؤكد على كفر المنافقين، كما تبين مصيرهم المحتوم في الآخرة، وهو: الدرك الأسفل من النار، لأنهم زادوا على كفرهم، الكذب والمراوغة والخداع للمؤمنين، ولذلك فصل القرآن الحديث حولهم وحول صفاتهم لكي لا يقع

أنواع النفاق

تتنوع شعب ودروب النفاق، وتكثر مسالك المنافقين، وتتعدد أحوالهم الخبيثة. ومع التحقيق والتدبر ندرك أن ذلك كله يرجع إلى نوعين أساسيين، هما: النفاق العقدي، والنفاق العملي. وفيما يأتي نتناولهما بالتفصيل والبيان.

أولاً: النفاق العقدي:

وهو النفاق الأكبر، وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه، وهذا هو النفاق الذي كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونزل القرآن بدم أهله وفضح كفرهم^(١).

والمنافق: يظهر خلاف ما يبطنه، فظاهره مسلم، تجري عليه أحكام الإسلام الظاهرة في الدنيا، ويعامل معاملة المسلمين؛ لأننا لم نؤمر بالشق عما في القلوب، وهذا في الأصل خارج عن نطاق وقدرة ابن آدم. لأن الإيمان الظاهر الذي تجري عليه الأحكام في الدنيا لا يستلزم الإيمان الباطن الذي يكون صاحبه من المؤمنين حقاً^(٢).

ومن الآيات في نفي الإيمان عنهم وبيان

(١) جامع العلوم والحكم ص ٤٠٣.

(٢) أشار لذلك الشوكاني في فتح القدير ٦٥ / ١ تفسير الآية التاسعة من سورة البقرة. وانظر: الإيمان الأوسط، ابن تيمية ص ١٦٦.

المؤمنون في حبالهم وخذاعهم.

والنفاق إذا أطلق ذكره في القرآن فإن المراد به النفاق الأكبر المنافي للإيمان؛ بخلاف الكفر فإنه يأتي - أحياناً - بمعنى الكفر الأصغر، وكذلك الظلم والفسق والشرك، أما في السنة النبوية فقد ورد النفاق الأصغر^(١).

ثانيًا: النفاق العملي:

وهو النفاق الأصغر، واختلاف السر والعلانية في الواجبات، وذلك بعمل شيء من أعمال المنافقين؛ مع بقاء أصل الإيمان في القلب وصاحبه لا يخرج من الملة، ولا ينفي عنه مطلق الإيمان، ولا يسمى الإسلام، وهو معرض للعذاب كسائر المعاصي، دون الخلود في النار، وصاحبه ممن تناله شفاعة الشافعين بإذن الله.

وهذا النوع من النفاق مقدمة وطريق للنفاق الأكبر؛ لمن سلكه وكان ديدنه. وأمثلة ذلك: الكذب في الحديث، وإخلاف الوعد، وخيانة الأمانة، والفجور في الخصومة، والغدر بالعهود، وكالرياء الذي لا يكون في أصل العمل، وإظهار المودة للغير والقيام له بالخدمة مع إضممار عكسه

(١) انظر: الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة ١/ ١٤١، إعداد عبدالله بن عبد الحميد الأثري، مراجعة وتقديم فضيلة الشيخ الدكتور عبد الرحمن بن صالح المحمود.

في النفس^(٢).

وقد ثبت في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو وأبي هريرة وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتّمن خان)^(٣).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اتّمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)^(٤).

وقوله صلى الله عليه وسلم: (كان منافقاً خالصاً) معناه شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال، قال بعض العلماء هذا فيمن كانت هذه الخصال غالبية عليه، فأما من يندر ذلك منه فليس داخلًا فيه، فهذا هو المختار

(٢) انظر: الجواهر المضئية، محمد بن عبد الوهاب، ص ١٣، الوجيز في عقيدة السلف الصالح، عبدالله بن عبد الحميد ص ١٠٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم ٣٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، ١/ ٧٨، رقم ٥٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم ٣٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، ١/ ٧٨، رقم ٥٨.

في معنى الحديث^(١).

عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه. ولا يلزم من خوفهم من ذلك وقوعه منهم، بل ذلك على سبيل المبالغة منهم في الورع والتقوى رضي الله عنهم^(٣).

وخلاصة القول في النفاق الأصغر: أنه نوع من الاختلاف بين السريّة والعلانية مما هو دون الكفر، وذلك كالرياء الذي لا يكون في أصل العمل وكإظهار مودة الغير والقيام بخدمته مع إضمّار بغضه والإساءة إليه، كالخصال الواردة في حديث شعب النفاق ونحو ذلك؛ فعلى المسلم الحذر من الوقوع في شيء من ذلك.

وقد حذر الله تعالى عباده المؤمنين من الوقوع في بعض السلوكيات الداخلة في أفعال المنافقين، مثل مخالفة القول للفعال؛ فقال جل شأنه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(٢) **كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ** ﴿٢﴾ [الصف: ٢ - ٣].

أي: لم تقولون الخير وتحثون عليه، وربما تمدحتم به وأنتم لا تفعلونه؟ وتنهون عن الشر وربما نزهتم أنفسكم عنه، وأنتم متلوّثون به ومتصفون به. فهل تليق بالمؤمنين هذه الحالة الذميمة؟ أم من أكبر المقت عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل؟^(٤).

ولما تقرر عند الصحابة رضي الله عنهم أن النفاق هو اختلاف السر والعلانية خشي بعضهم على نفسه أن يكون إذا تغير عليه حضور قلبه ورقته وخشوعه عند سماع الذكر برجوعه إلى الدنيا والاشتغال بالأهل والأولاد والأموال أن يكون ذلك منه نفاقاً، كما في صحيح مسلم عن حنظلة الأسدي أنه مر بأبي بكر وهو يبكي، فقال: (ما لك؟) قال: نافق حنظلة يا أبا بكر، نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالجنة والنار كأننا رأي عين، فإذا رجعنا، عافسنا الأزواج والضيعة فنسينا كثيراً، قال أبو بكر: فالله إنا لكذلك، فانطلقنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: مالك يا حنظلة؟ قال: نافق حنظلة يا رسول الله، وذكر له مثل ما قال لأبي بكر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو تدومون على الحال التي تقومون بها من عندي، لصافحتكم الملائكة في مجالسكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة^(٢).

ومما ورد في هذا المعنى - أي خوف الصحابة من النفاق - ما قاله ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ٤٧/٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الأرض، رقم ٢٧٥٠.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١/ ١١١.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٥٨.

قيل: إن سبب نزولها ما روي عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: (قعدنا نفرًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملنا؛ فأنزل الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ① يَتَأْتِيهِ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ② [الصف ١-٢].

قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله قال أبو سلمة: فقرأها علينا ابن سلام، قال يحيى: فقرأها علينا أبو سلمة، قال ابن كثير: فقرأها علينا الأوزاعي، قال عبد الله: فقرأها علينا ابن كثير ③.

وقال المفسرون: إن المؤمنين قالوا: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله لعملناه ولبدلنا فيها أموالنا وأنفسنا فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا﴾ [الصف: ٤].

وأنزل الله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَجْزَرٍ﴾ [الصف: ١٠] الآية. «فابتلوا بذلك يوم أحد، فولوا مدبرين، وكرهوا الموت وأحبوا الحياة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾

وقيل: لما أخبر الله تعالى رسوله صلى

الله عليه وسلم بثواب أهل بدر قالت الصحابة: لئن لقينا قتالاً لنفرغن فيه وسعنا، ففروا يوم أحد، فغيرهم الله بهذه الآية. وقيل: نزلت في شأن القتال، كان الرجل يقول: قاتلت ولم يقاتل وأطعمت ولم يطعم وضربت ولم يضرب. فنزلت هذه الآية. ④ وهناك فروق بين النفاق الأكبر والنفاق الأصغر منها:

١. أن النفاق الأكبر يخرج من الملة، والنفاق الأصغر لا يخرج من الملة.
٢. أن النفاق الأكبر اختلاف السر والعلانية في الاعتقاد، والنفاق الأصغر اختلاف السر والعلانية في الأعمال دون الاعتقاد.
٣. أن النفاق الأكبر لا يصدر من مؤمن، وأما النفاق الأصغر فقد يصدر من المؤمن.

فالنفاق الأصغر هو المانع والمعوق للعمل الصالح الذي ينبغي على المسلم تجنبه ليقبل على الخيرات وفعل الصالحات وهو كما سبق النفاق العملي، فصاحبه يتصف ببعض صفات أهل النفاق الأكبر.

① أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الصف، ٤١٢/٥، رقم ٣٣٠٩. وصححه الألباني.

② لباب التأويل، الخازن ٨٣/٧.

المؤمنين به وعنه، وأطيعوا الله ورسوله في امتثال الأوامر وترك الزواجر ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ يعنون -لعنهم الله- أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقولون: أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة وعلى طريقة واحدة وهم سفهاء!!

وقد تولى الله سبحانه، جوابهم في هذه المواطن كلها، فقال: ﴿إِنَّمَا لَهُمْ جَهَنَّمُ وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل، وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى، والبعد عن الهدى (٢).

٢. مرض القلب.

قال جل شأنه: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠].

أي: في قلوبهم شك ونفاق. وأصل المرض الضعف. وسمي الشك في الدين مرضاً لأنه يضعف الدين كالمرض يضعف البدن. ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ لأن الآيات كانت تنزل تترى، آية بعد آية، كلما كفروا بآية ازدادوا كفراً ونفاقاً (٣).

٣. الظن السيئ بالله.

كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَيُعَذِّبُ

صفات المنافقين

التعرف على صفات المنافقين أمر في غاية الأهمية وذلك حتى ينكشف هذا الصنف الخبيث من البشر، وحتى يحذر المؤمنون من أحوالهم ومكرهم.

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: (نبه الله سبحانه وتعالى على صفات المنافقين؛ لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون، فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، ومن اعتقاد إيمانهم وهم كفار في نفس الأمر، وهذا من المحذورات الكبار أن يظن بأهل الفجور خيراً) (١).

وللمنافقين صفات كثيرة يمكن تقسيمها إلى صفات اعتقادية وصفات سلوكية على ما يأتي:

أولاً: صفات اعتقادية:

١. الكفر بالله.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ إِنَّمَا لَهُمْ أَشْوَاقٌ وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣].

يقول الله تعالى: وإذا قيل للمنافقين: ﴿ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ أي: كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسوله والبعث بعد الموت والجنة والنار وغير ذلك، مما أخبر

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤٧/١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٨١/١.

(٣) معالم التنزيل، البغوي ٦٦/١.

الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِينَ
الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوِّ عَلَى دَائِرَةِ السَّوِّ
وَعُذِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ
وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ [الفتح: ٦].

فهم دائما يتهمون الله في حكمه، ويظنون بالرسول وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية؛ وقد جعل الله صفة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات هي ظن السوء بالله. فالقلب المؤمن حسن الظن بربه، يتوقع منه الخير دائما. يتوقع منه الخير في السراء والضراء. ويؤمن بأن الله يريد به الخير في الحالين. وسر ذلك أن قلبه موصول بالله. وفيض الخير من الله لا ينقطع أبداً. فمتى اتصل القلب به لمس هذه الحقيقة الأصلية، وأحسها إحساس مباشرة وتذوق.

فأما المنافقون والمشركون فهم مقطوعو الصلة بالله. ومن ثم لا يحسون تلك الحقيقة ولا يجدونها، فیسوء ظنهم بالله؛ وتتعلق قلوبهم بظواهر الأمور، ويبنون عليها أحكامهم. ويتوقعون الشر والسوء لأنفسهم وللمؤمنين، كلما كانت ظواهر الأمور توحى بهذا؛ على غير ثقة بقدر الله وقدرته، وتدييره الخفي اللطيف ^(١).

ثانياً: صفات سلوكية:

١. العداوة والحسد للمؤمنين.

كما قال سبحانه: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسُوءُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَقُولُوا وَهُمْ فَرِحُوا﴾ [التوبة: ٥٠]

وهذا نوع آخر من كيد المنافقين ومن خبث بواطنهم، والمعنى: إن تصيبك في بعض الغزوات حسنة سواء كان ظفراً، أو كان غنيمة، أو كان انقياداً لبعض ملوك الأطراف، يسؤهم ذلك، وإن تصيبك مصيبة من نكبة وشدة ومصيبة ومكروه يفرحوا به، ويقولوا: قد أخذنا أمرنا الذي نحن مشهورون به، وهو الحذر والتيقظ والعمل بالحزم ^(٢).

٢. الفساد في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ^(١١) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ^(١٢) [البقرة: ١١ - ١٢].

ومعنى الآيتين الكريمتين:

﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالنفاق وموالة الكفرة، وتفريق الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن، فإنكم إذا فعلتم ذلك فسد ما في الأرض بهلاك الأبدان وخراب الديار.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٢٣١.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٤٧٣.

كما أخبر الله عنهم بقوله ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: ٦٧].

أي: هم على دين واحد. وقيل: أمرهم واحد بالاكتماع على النفاق، ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ بالشرك والمعصية، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ أي عن الإيمان والطاعة، ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: يمسكونها عن الصدقة والإنفاق في سبيل الله ولا ييسطونها بخير، ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ تركوا طاعة الله، فتركهم الله من توفيقه وهدايته في الدنيا، ومن رحمته في الآخرة، وتركهم في عذابه (٣).
٥. الكسل في العبادات.

كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢].

وهذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها، وهي الصلاة إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها؛ لأنهم لا نية لهم فيها، ولا إيمان لهم بها ولا خشية، ولا يعقلون معناها.

ولما نهاهم الله عن الفساد الذي هو دأبهم أجابوا بهذه الدعوى العريضة، ونقلوا أنفسهم من الاتصاف بما هي عليه حقيقة وهو الفساد إلى الاتصاف بما هو ضد لذلك وهو الصلاح، ولم يقفوا عند هذا الكذب البحت والزور المحض حتى جعلوا صفة الصلاح مختصة بهم خالصة لهم، فرد الله عليهم ذلك أبلغ رد... وردهم إلى صفة الفساد التي هم متصفون بها في الحقيقة ردا مؤكدا مبالغا فيه بزيادة على ما تضمنته دعواهم الكاذبة (١).
٣. البهتان والكذب.

كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَيَخْلُقُونَ يَاللَّهُ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [التوبة: ٥٦].

أي: ﴿وَيَخْلُقُونَ يَاللَّهُ﴾ لكم أيها المؤمنون هؤلاء المنافقون كذبا وباطلا ﴿إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ في الدين والملة ﴿وَمَا هُمْ بِكُمْ﴾ أي: ليسوا من أهل دينكم وملتكم، بل هم أهل شك ونفاق ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ يقول: ولكنهم قوم يخافونكم، فهم خوفا منكم يقولون بألسنتهم إنهم منكم؛ ليأمنوا فيكم فلا يقتلوا (٢).

٤. الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف والبخل بالمال.

(١) فتح القدير، الشوكاني ٦٧/١.

(٢) تفسير المنار ٤١٩/١٠.

(٣) معالم التنزيل، البغوي ٧١/٤.

فقله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا﴾ هذه صفة ظواهرهم، كما قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ [التوبة: ٥٤].

ثم ذكر تعالى صفة بواطنهم الفاسدة، فقال: ﴿رَأَوْنَ النَّاسَ﴾ أي: لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله بل إنما يشهدون الناس تقية من الناس ومصانعة لهم؛ ولهذا يتخلفون كثيرا عن الصلاة التي لا يرون غالبًا فيها كصلاة العشاء وقت العتمة، وصلاة الصبح في وقت الغسل، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجال، معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار)^(١).

ولذلك ورد عن ابن عباس رضي الله عنه قال: يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان، ولكن يقوم إليها طلق الوجه، عظيم الرغبة، شديد الفرح، فإنه يناجي الله تعالى. وإن الله أمامه يغفر له ويجيبه إذا دعاه، ثم يتلو ابن عباس هذه الآية: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، باب وجوب صلاة الجماعة، ٢٣١/١.

الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا﴾ (٢).

٦. الحذر من انكشاف ما هم عليه. قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا إِلَّكَ اللَّهُ مَخْرُجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤].

وهنا يخبر جل شأنه أن المنافقين يحذرون أن ينزل الله سورة تفضحهم وتبين ما تنطوي عليه ضمائرهم من الخبث، فهم يقولون القول بينهم، ثم يقولون: عسى الله ألا يفشي علينا سرنا هذا. وقال سبحانه في هذه الآية: ﴿قُلِ اسْتَزِرُوا إِلَّكَ اللَّهُ مَخْرُجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ أي: إن الله سيزل على رسوله ما يفضحكم به ويبين له أمركم^(٣).

٧. الطمع والجشع. كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨].

وهنا يصف الله قوما من المنافقين بأنهم عابوا النبي صلى الله عليه وسلم في تفريق الصدقات، وزعموا أنهم فقراء ليعطيهم. قال أبو سعيد الخدري: (بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم مالا إذ جاءه حرقوص بن زهير أصل الخوارج، ويقال له

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤٣٨/٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٧١/٤، أضواء البيان ٦٣/١٠.

افتضح، وأنهم هالكون لا محالة. وهؤلاء هم الأعداء الحقيقيون للإسلام والمسلمين فلا تأمنهم على سر، لأن قلوبهم متحرقة حسداً وبغضاً، لعنهم الله وطردهم من رحمته، فما أقبح حالهم، وما أشد غفلتهم، فكيف يصرفون عن الحق إلى الباطل، وعن الإيمان إلى الكفر؟^(٢).
٩. التستر ببعض الأعمال المشروعة للإضرار بالمؤمنين.

كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضُرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَاجاً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

وقد نزلت هذه الآية في جماعة من المنافقين بنوا مسجداً يضارون به مسجد قباء ضاراً يعني: مضارة للمؤمنين ﴿وَكُفْراً﴾ بالله ورسوله ﴿وتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم كانوا جميعاً يصلون في مسجد قباء فبنوا مسجد الضرار ليصلي فيه بعضهم فيؤدي ذلك إلى الاختلاف وافتراق الكلمة ﴿وَإِزْوَاجاً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: انتظاراً وإعداداً لمن حارب الله ورسوله. يقال: أرصدت له إذا أعددت له، وهو أبو عامر الفاسق أرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح،

(٢) أيسر التفاسير، أسعد حومد ص ٥٠٧٠.

ذو الخويصرة التميمي، فقال: اعدل يا رسول الله. فقال: (ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل) فنزلت الآية.. وعندها قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أقتل هذا المنافق. فقال: (معاذ الله أن يتحدث الناس أنني أقتل أصحابي إن هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية)^(١).

٨. الاهتمام بالمظهر وفساد المخبر.
كما قال الله عنهم ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَانُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ خُشْبٌ مَسْنَدٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ فَنُلاَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَكُونُوا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

والمعنى: وإذا رأيت هؤلاء المنافقين تعجبك صورهم، وإذا تكلموا تعجبك أقوالهم لأنهم ذوو صور متناسقة، وذوولسن وفصاحة، ولكنهم في الحقيقة أشباح بلا أرواح، وقلوبهم فارغة من الإيمان فكانهم خشب جوفاء قد نخر السوس داخلها، وهم في غاية الهلع والجزع، يحسبون كل صوت يقع أن البلاء قد جاءهم، وأن أمرهم قد

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٦٦/٨.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب من ترك قتال الخوارج للتألف ولئلا ينفر الناس عنه، ٣/١٢٩٦، رقم ٦٥٣٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، ٢/٧٤٠، رقم ١٠٦٣.

وابنوا لي مسجداً فأني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فأت بجند من الروم، فأخرج محمداً وأصحابه من المدينة، فبنوا مسجد الضرار إلى جنب مسجد قباء، فذلك قوله تعالى: ﴿وَارْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ وهو أبو عامر الفاسق ليصلي فيه إذا رجع من الشام^(١).

١٠. اللدد في الخصومة.

قال جل شأنه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ فَأُولَٰئِكَ الْخَصَاصُ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

والمقصود: أن هناك أناساً منافقين تعجب المرء حلاوة ألسنتهم، ويتظاهرون بالورع وطيب السريرة، ويشهدون الله على صدق طوبيتهم وقلوبهم، وقلوبهم في الحقيقة هي أمر من الصبر، فهم يقولون حسناً ويفعلون سيئاً، وهم شديداً الجدل، لا يعجزهم أن يغشوا الناس بما يظهر عليهم من الميل إلى الإصلاح^(٢).

١١. موالة الكافرين.

قال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُتَّقِينَ بَأَنَّهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [١٣٨] الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُفُوتٌ عَنْهُمْ الْغَرَّةُ فَإِنَّ الْغَرَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا [١٣٩] [النساء: ١٣٨ - ١٣٩].

وهنا يقول الله لنيه: يا محمد، بشر

(١) معالم التنزيل، البغوي ٤٣٣/٣.

(٢) أيسر التفاسير، أسعد حومد ص ٢١١ بتصرف

يسير جداً.

المنافقين الذين يتخذون أهل الكفر بي والإلحاد في ديني ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ يعني: أنصاراً وأخلاء ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يعني: من غير المؤمنين ﴿أَيْبَنُفُوتٌ عَنْهُمْ الْغَرَّةُ﴾ يقول: يطلبون عندهم المنعة والقوة، باتخاذهم إياهم أولياء من دون أهل الإيمان بي؟ ﴿فَإِنَّ الْغَرَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ يقول: فإن الذين اتخذوهم من الكافرين أولياء ابتغاء العزة عندهم، هم الأذلاء الأقلاء، فهلا اتخذوا الأولياء من المؤمنين، فيلتمسوا العزة والمنعة والنصرة من عند الله الذي له العزة والمنعة، الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء، فيعزهم ويمنعهم؟^(٣).

١٢. التربص بالمؤمنين.

كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

وهنا يخبر الله تعالى عن المنافقين أنهم يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء، بمعنى ينتظرون زوال دولتهم، وظهور الكفر عليهم، وذهاب ملتهم ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: نصر وتأيد وظفر وغنيمة ﴿قَالُوا﴾

(٣) جامع البيان، الطبري ٣١٩/٩ بتصرف يسير.

الاشترك في أصل الفعل فكونهم يخادعون الله والذين آمنوا يفيد أن الله سبحانه والذين آمنوا يخادعونهم.

والمراد بالمخادعة من الله: أنه لما أجرى عليهم أحكام الإسلام مع أنهم ليسوا منه في شيء فكأنه خادعهم بذلك كما خادعوه بإظهار الإسلام وإبطان الكفر، مشاكلة لما وقع منهم بما وقع منه والمراد بمخادعة المؤمنين لهم: هو أنهم أجروا عليهم ما أمرهم الله به من أحكام الإسلام ظاهراً وإن كانوا يعلمون فساد بواطنهم كما أن المنافقين خادعهم بإظهار الإسلام وإبطان الكفر.

والمراد بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ الإشعار بأنهم لما خادعوا من لا يخدع كانوا مخادعين لأنفسهم، لأن الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن، وأما من عرف البواطن فمن دخل معه في الخداع فإنما يخدع نفسه وما يشعر بذلك^(٢).

١٤. الإفساد بين المؤمنين.

قال تعالى عن مجموعة من المنافقين أرادوا الخروج مع النبي في غزوة تبوك: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضْعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَنُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧].

(٢) فتح القدير ١/ ٦٥.

أَي: يتوددون إلى المؤمنين بهذه المقالة ﴿وَأِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ أَي: إدالة على المؤمنين في بعض الأحيان، كما وقع يوم أحد، فإن الرسل تبلى ثم يكون لها العاقبة ﴿قَالُوا أَلَمْ تَسْخَرْ عَلَيْنَاكُمْ وَتَمْنَعَكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي: ساعدناكم في الباطن، وما ألوانهم خبالاً وتخديلاً حتى انتصرتهم عليهم. وهذا أيضاً تودد منهم إليهم، فإنهم كانوا يصانعون هؤلاء وهؤلاء؛ ليحفظوا عندهم ويأمنوا كيدهم، وما ذاك إلا لضعف إيمانهم، وقلة إيقانهم.

قال الله تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أَي: بما يعلمه منكم -أيها المنافقون- من البواطن الرديئة، فلا تغتروا بجريان الأحكام الشرعية عليكم ظاهراً في الحياة الدنيا، لما له تعالى في ذلك من الحكمة، فيوم القيامة لا تنفعكم ظواهركم، بل هو يوم تبلى فيه السرائر ويحصل ما في الصدور^(١).

١٣. المخادعة.

قال تعالى: ﴿يَخْدَعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

والمراد من مخادعتهم لله أنهم صنعوا معه صنع المخادعين وإن كان العالم الذي لا يخفى عليه شيء لا يخدع وصيغة فاعل تفيد

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٣٦.

وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا ءَاتَتْهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعَقِبَهُمُ يَفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْتُهُ يَمَآ أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٧].

وهذا صنف من المنافقين قد عاهد الله تعالى لئن أغناهم من فضله وأصبحوا ذوي ثروة ومال كثير ليصدقن منه ولينفقن في طريق البر والخير، فلما أعطاهم الله ما سألوا وكثر مالهم شحوا به وبخلوا، وتولوا عما تعهدوا به وما كانوا عليه من تقوى وصلاح، وهم معرضون. فأورثهم هذا البخل وخلف الوعد والكذب ﴿يَفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ لا يفارقهم حتى يلقوا ربهم ^(٣).

١٧. الفرح بالتخلف عن الجهاد. قال الله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿٨١﴾ [التوبة: ٨١].

والسياق هنا في الحديث عن المنافقين، فقال تعالى مخبراً عنهم: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ أي: سر المتخلفون ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ أي: بقعودهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة ﴿وَكُرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا﴾

والقلوب الحائرة تبث الخور والضعف في الصفوف، والنفوس الخائنة خطر على الجيوش؛ ولو خرج أولئك المنافقون ما زادوا المسلمين قوة بخروجهم بل لزادوهم اضطراباً وفوضى. ولأسرعوا بينهم بالوقعة والفتنة والتفرقة والتخذيل. وفي المسلمين من يسمع لهم في ذلك الحين. ولكن الله الذي يرعى دعوته ويكلاً رجالها المخلصين، كفى المؤمنين الفتنة، فترك المنافقين المتخاذلين قاعدين ^(١).

١٥. الحلف الكاذب.

قال الله تعالى عنهم: ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ [التوبة: ٥٦].

والمعنى: يتظاهر هؤلاء المنافقون بأنهم منكم، ليأمنوا بأسكم، ويحلفون بالله كذبا أنهم منكم في الدين والملة، وهم في الحقيقة ليسوا من أهل دينكم، بل هم أهل شك ونفاق، وإنهم إنما يفعلون ذلك، ويحلفون لكم، خوفاً منكم وفرقا، فهم خوفاً منكم يقولون بألسنتهم: «إنا منكم»، ليأمنوا فيكم فلا يقتلوا ^(٢).

١٦. الغدر وعدم الوفاء بالعهود مع الله. كما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾

(١) في ظلال القرآن ٣٥/٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٩٧/١٤، أيسر التفاسير، أسعد حومد ص ١٢٩٢.

(٣) أيسر التفاسير ٤٠١/٢ بتصرف يسير.

للخطر من ورائهم.. وهي دعوة خبيثة تأتي النفوس من الشجرة الضعيفة فيها، ثغرة الخوف على النساء والذرائر.

والسياق هنا يرسم صورة نفسية لهؤلاء المنافقين والذين في قلوبهم مرض. صورة نفسية داخلية لو هن العقيدة، وخور القلب، والاستعداد للانسلاخ من الصف غير مبقين على شيء، ولا متجملين لشيء^(٢).

١٩. عدم الانتفاع بالقرآن.

قال جل شأنه: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ آيَاتُكُم زَادَتْهُ هِذِهِ آيَاتُنَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۚ﴾ (١١٤) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ۚ﴾ (١١٥) [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥].

وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سببا لضلالهم ودمارهم، كما أن سعى المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلا خبالاً ونقصاً^(٣).

٢٠. الاستخفاء من الناس.

قال الله تعالى عنهم: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۝﴾ (١٠٨) [النساء: ١٠٨].

وهنا يبين الله أحوال هؤلاء الخائنين،

يَأْمُرُهُمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴿ في سبيله، وكرههم هذا للجهد هو ثمرة نفاقهم وكفرهم وقولهم: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ لأن غزوة تبوك كانت في شدة الحر، قالوا هذا لبعضهم بعضاً وهنا أمر الله تعالى رسوله أن يرد عليهم قولهم هذا فقال: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ فلماذا لا يتقونها بالخروج في سبيل الله كما يتقون الحر بعدم الخروج.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لما تخلفوا عن الجهاد لأن نار جهنم أشد حراً، ولكنهم لا يفقهون. وقوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ أي: في هذه الحياة الدنيا بما يحصل لهم من المسرات ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ أي يوم القيامة لما ينالهم من الحرمان والعذاب، وذلك كان ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الشر والفساد^(١).

١٨. التخذيل والتشبيط والإرجاف.

كما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿وَلِذَٰلِكَ قَالَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَبْتَغِلْ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَهْجُوكُمُ الْفَرِجَةُ وَلَيْسَ إِلَهُكُمُ اللَّهُ يَكْفُلُ الْيَوْمَ بِكُمُ الْأَمْرَ﴾ (١٣) [الأحزاب: ١٣].

فهم يحرضون أهل المدينة على ترك الصفوف، والعودة إلى بيوتهم، بحجة أن إقامتهم أمام الخندق مرابطين هكذا، لا موضع لها ولا محل، وبيوتهم معرضة

(٢) في ظلال القرآن ٥٧/٦ بتصرف.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٣٩/٤.

(١) المصدر السابق ٢/٤٠٥.

مظاهر النفاق

أبرز القرآن الكريم مظاهر النفاق في عدد من آياته الكريمة، حتى يجلي للمؤمنين حال المنافقين، ويهتك سترهم. وليحدد - كذلك - المعالم الأساسية لهذه الظاهرة الخبيثة، حتى لا تتوه بين دروب المجتمع المسلم. والمتدبر في كتاب الله تعالى يجد أن أهم هذه المظاهر ما يأتي:

أولاً: التكذيب والتشكيك:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

ذكر الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة عن قتادة قال: ذلك أناس من المنافقين، قد كان محمد يعدنا فتح فارس والروم، وقد حصرنا هاهنا، حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته، ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً.

كما ذكر الطبري رواية أخرى في هذا السياق عن ابن زيد، قال: (قال رجل يوم الأحزاب لرجل من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم: يا فلان أرايت إذ يقول رسول الله: (إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله) فأين هذا من هذا، وأحدنا لا يستطيع أن يخرج

وينعي عليهم أفعالهم، فقال الله تعالى إن من شأن هؤلاء الخائنين أنهم يستترون من الناس عند اجتراح السيئات والآثام، إما حياء، وإما خوفاً من العقاب، ولا يستخفون من الله، ولا يستترون منه بترك ارتكابها، لضعف إيمانهم، لأن الإيمان يمنع من الإصرار، ومن تكرار الذنب، فمن يعلم أن الله يراه في حالك الظلمة، لا بد له من أن يترك الذنب حياء من الله. ويقول تعالى: إنه مشاهدكم حين يتفقون ليلاً على ما لا يرضي الله من القول تبرئة لأنفسهم، ورمياً لغيرهم بجريمتهم، والله حافظ لأعمالهم (محيطاً) لا يعزب عن عمله مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، فلا سبيل إلى نجاتهم من عقابه^(١).

وهكذا تتضح صفات المنافقين في كتاب الله تعالى وهي صفات لا تخطئها عين المؤمن ولا بصيرته.

(١) أيسر التفاسير، أسعد حومد ص ٦٠١.

منطقيون مع أنفسهم ومشاعرهم؛ فالهول قد أزاح عنهم ذلك الستار الرقيق من التجمل، وروع نفوسهم ترويعاً لا يثبت له إيمانهم المهلهل. فجهروا بحقيقة ما يشعرون غير مبقين ولا متجملين! ومثل هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمون في كل جماعة؛ وموقفهم في الشدة هو موقف إخوانهم هؤلاء. فهم نموذج مكرر في الأجيال والجماعات على مدار الزمان^(٢).

ثانياً: إيذاء المؤمنين والاستهزاء بهم:
قال الله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

أما المنافقون فهم قوم من الأوس والخزرج. وأما الذين في قلوبهم مرض فهم قوم من قريش أسلموا وما قوي إسلامهم في قلوبهم ولم يهاجروا.. ثم إن قريشاً لما خرجوا لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أولئك: نخرج مع قومنا فإن كان محمد في كثرة خرجنا إليه وإن كان في قلة أقمنا في قومنا قال محمد بن إسحق ثم قتل هؤلاء جميعاً مع المشركين يوم بدر.

وقوله: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾^(٣).

قال ابن عباس: معناه أنه خرج بثلاثمائة

يول من الخوف (ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) فقال له: كذبت، لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرك، قال: فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره، فدعاه فقال: (ما قلت ؟) فقال: كذب علي يا رسول الله، ما قلت شيئاً، ما خرج هذا من فمي قط، قال الله في ذلك: ﴿يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أَوْبَهُمَا لَمْ يَتَّوَلَوْا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعْذَبْنَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٤]^(١).

وفي ظلال هذه الآية الكريمة يقول سيد قطب رحمه الله: وجد هؤلاء المنافقون في الكرب المزلزل، والشدة الآخذة بالحناق فرصة للكشف عن خبيثة نفوسهم وهم آمنون من أن يلومهم أحد؛ وفرصة للتوهم والتخذيل وبث الشك والريبة في وعد الله ووعد رسوله، وهم مطمئنون أن يأخذهم أحد بما يقولون. فالواقع بظاهره يصدقهم في التوهم والتشكيك. وهم مع هذا

(١) جامع البيان ٢٠/٢٢٣.

وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخمس، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أحلت لكم الغنائم)، رقم ٢٩٥٢، ونصه: (إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذي نفسي بيده لتنفق كنوزهما في سبيل الله).

(٢) في ظلال القرآن ٦/٥٦.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/١٤١.

أبو عقيل بنصف صاع وجاء إنسان بأكثر منه فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا وما فعل هذا الآخر إلا رثاء فنزلت ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ الآية (٣).

ثالثاً: خذلان المؤمنين:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّنْجِ الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣) وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ نَاقَضُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَمَالَوْا فَيَتْلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ فَنَالَا لَأَتَّبَعْنَكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ يَا قَوْمِ هُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (٣٧) الَّذِينَ قَالُوا لَا خَافَتْنَاهُمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) [آل عمران: ١٦٦ - ١٦٨].

وهذا دأب المنافقين في كل زمان ومكان وموقف: خذلان المؤمنين والتخلي عنهم في المحن والشدائد. وهذه الآيات الكريمة السابقة في شأن غزوة أحد حيث خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد في ألف رجل من أصحابه وحتى إذا كانوا بالشوط بين أحد والمدينة، انخزل عنهم عبد الله بن أبي ابن سلول بثلاث الناس وقال: أطاعهم، أي: رسول الله صلى الله عليه

وثلاثة عشر يقاتلون ألف رجل وما ذاك إلا أنهم اعتمدوا على دينهم. وقيل: المراد إن هؤلاء يسعون في قتل أنفسهم رجاء أن يجعلوا أحياء بعد الموت ويثابون على هذا القتل.

ومن يسلم أمره إلى الله ويثق بفضله ويعول على إحسان الله فإن الله حافظه وناصره؛ لأنه عزيز لا يغلبه شيء حكيم يوصل العذاب إلى أعدائه والرحمة والثواب إلى أوليائه (١).

ومن صور إيذائهم للمؤمنين: الانتقاص منهم والسخرية بهم، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٣٦) [التوبة: ٧٩].

قال ابن كثير رحمه الله: (وهذه أيضاً من صفات المنافقين، ألا يسلم أحد من عيبيهم ولمزهم في جميع الأحوال، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا هذا مرأى ١١ وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا) (٢).

كما جاء في البخاري عن أبي مسعود قال: (لما أمرنا بالصدقة كنا نتحامل فجاء

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، تفسير سورة براءة، ٤/ ١٧١٤، رقم ٤٣٩١.

(١) المصدر السابق.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٨٤.

المؤمنين وقالوا ما قالوا تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر. أو المعنى: هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان؛ لأن تقليلهم سواد المسلمين بالانخدال فيه تقوية للمشركين^(٢).

رابعاً: النهي عن الإنفاق على المؤمنين:

قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

جاء في صحيح البخاري عن زيد بن أرقم قال: (كنت في غزاة فسمعت عبد الله بن أبي يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فذكرت ذلك لعمي أو لعمر، فذكره للنبي صلى الله عليه وسلم فدعاني فحدثته فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عبد الله بن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا. فكذبني رسول الله صلى الله عليه وسلم وصدقه؛ فأصابني همٌّ لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذبتك رسول الله صلى الله عليه وسلم ومقتك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ [المنافقون: ١].

وسلم فخرج وعصاني. والله ما ندري علام تقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس؟ فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه أهل النفاق والريب، فاتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام - أخو بني سلمة - يقول لهم: يا قوم أذكركم الله أن تتخذلوا نبيكم وقومكم وقاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا فقالوا: لو نعلم أنكم تقتلون ما أسلمناكم، ولكننا لا نرى أن يكون قتالا. فلما استعصوا عليه، وأبوا إلا الانصراف عن المؤمنين قال لهم: أبعدكم الله يا أعداء الله فسيغني الله رسوله عنكم، ثم مضى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١).

هذا هو موقف المنافقين في غزوة أحد، وهو موقف يدل على فساد قلوبهم، وخبث نفوسهم، وجبنهم عن لقاء الأعداء.

هذا وقد أصدر سبحانه حكمه العادل على أولئك المنافقين فقال: ﴿هُمُ الْكُفْرُ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

أي: هم يوم أن قالوا هذا القول الباطل قد بينوا حالهم، وهتكوا أستارهم وكشفوا عن نفاقهم لمن كان يظن أنهم مؤمنون، لأنهم قبل أن يقولوا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ كانوا يتظاهرون بالإيمان، وما ظهرت منهم أمارات تؤذن بكفرهم، فلما انخذلوا عن عسكر

(١) انظر: تاريخ الأمم والرسول والملوك، الطبري ٦٠/٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٣٧٨/٧.

فبعث إليَّ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (إن الله قد صدقك يا زيد) ^(١).

وهكذا يفضح الله تعالى خطة المنافقين الدنيئة، كما تحكيها هذه الآية لينفض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه تحت وطأة الضيق والجوع ! وهي خطة الشيوعيين في حرمان المتدينين في بلادهم من بطاقات التموين، ليموتوا جوعاً أو يكفروا بالله، ويتركوا الصلاة ! وهي خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله بالحصار والتجويع ومحاولة سد أسباب العمل والارتزاق.

خامساً: الإعراض عن التحاكم لله ورسوله:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدْ أُصِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۖ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَفَقِّينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ۝٦١﴾ [النساء: ٦٠ - ٦١].

وهنا يبين الله تعالى أن هذه صفة المنافقين، وأن من فعل ذلك أو طلبه فإنه

في غاية البعد من الإيمان. وأن هناك فرقا واضحا وبونا شاسعا بين موقف المؤمنين وموقف المنافقين عند تحاكمهم إلى شرع رب العالمين، فموقف أهل الإيمان السمع والطاعة والإذعان، وموقف أهل النفاق الإعراض والنشوز والعصيان، ويتخذون من الإيمان الكاذبة الفاجرة وسيلة لخداع المؤمنين.

« إن المقتضى الفطري البديهي للإيمان، أن يتحاكم الإنسان إلى ما آمن به، وإلى من آمن به. فإذا زعم أنه آمن بالله وما أنزل، وبالرسول وما أنزل إليه. ثم دعي إلى هذا الذي آمن به ليتحاكم إلى أمره وشرعه ومنهجه؛ كانت التلبية الكاملة هي البديهية الفطرية. فأما حين يصد ويأبى فهو يخالف البديهية الفطرية، ويكشف عن النفاق، وينبئ عن كذب الزعم الذي زعمه من الإيمان! » ^(٢).

سادساً: التحالف مع الأعداء ضد المسلمين:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُظَيِّعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝١١﴾ [الحشر: ١١].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، تفسير سورة المنافقين، ٤/١٨٥٩، رقم ٤٦١٧.

(٢) في ظلال القرآن ٢/١٦٧ بتصرف يسير.

«... فأرسل إليهم عبدالله بن أبي يقول لا تخرجوا فإن معي من العرب وممن انضوى إلي من قومي ألفين فأقيموا فهم يدخلون معكم وقريظة تدخل معكم فبلغ كعب بن أسد صاحب عهد بني قريظة فقال: لا ينقض العهد رجل من بني قريظة وأنا حي، فقال سلام بن مشكم لحبي بن أخطب: حيي أقبل هذا الذي قال محمد فإنما شرفنا على قومنا بأموالنا قبل أن تقبل ما هو شر منه. قال: وما هو شر منه. قال: أخذ الأموال وسبي الذرية وقتل المقاتلة فأبى حيي فأرسل جدي بن أخطب إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم إنا لا نريم دارنا فاصنع ما بدا لك قال فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبر المسلمون معه وقال حاربت يهود»^(١).

وهذا الدور الخبيث الذي لعبه المنافقون في عصر النبوة، هو نفس الدور الذي يلعبه المنافقون اليوم، فحيث وجدت الخيانة ففتش عن المنافقين، وحيث وجدت الهزيمة فتش عن المنافقين، وحيث وجدت الدعوة إلى خذلان المجاهدين، أو المستضعفين فتش عن المنافقين. نسأل الله تعالى أن يحبط كيدهم، ويكشف سترهم، ويحفظنا والمسلمين أجمعين من شرهم.

(١) في ظلال القرآن ١٦٧/٢ بتصرف يسير. وروى ابن أبي حاتم عن السدي نحو ذلك مختصراً يراجع الدر المنثور للسيوطي ٣٨٦/١٤ ومعالم التنزيل، البغوي ٥١/٥.

المنافقون دائماً يمدون أيديهم بالتحالف مع كل عدو للإسلام والمسلمين، وذلك منذ نشأتهم حتى آخر الزمان، لا يكفون عن ذلك ولا ينتهون.

ووصل تأمرهم - في عصر النبي صلى الله عليه وسلم - إلي حد الاتصال بأعداء المسلمين من المشركين واليهود، والتأمر على المسلمين، وقد فضح القرآن ذلك.

يقول تعالى عن اتصالهم بالمشركين وقت الحرب: ﴿الَّذِينَ يَرَبُّونَكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ تَسْتَحِذْ عَلَيْهِمْ وَتَمْنَعَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

وعن تحالفهم مع اليهود يقول تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَهَٰذَا اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدِيمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

ويقول سبحانه عن تحالفهم مع يهود بني النضير: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

قال الطبري في وقعة جلاء بني النضير:

طريقة التعامل مع المنافقين

حدد القرآن الكريم في عدد من آياته الكريمة طرقا واضحة للتعامل مع طائفة المنافقين، وهذه الطرق التي أرشد إليها القرآن الكريم هي - بلا شك - أنجع الطرق وأقواها، وأقربها وصولا إلى الهدف المنشود، وهو حصار طائفة المنافقين، وتحجيم خطرهم، وكسر شوكتهم. والمتدبر في كتاب الله تعالى يجد أن أهم هذه الطرق ما يأتي:

أولاً: النهي عن طاعتهم وموالاتهم:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨].

وقال جل شأنه: ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا يَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ مُعَقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

وهنا ينهي تعالى عباده المؤمنين أن يتخذوا بطانة من المنافقين من أهل الكتاب وغيرهم، يظهر ونهم على سرائرهم أو يولونهم بعض الأعمال الخاصة بأهل الإسلام، وذلك أنهم هم الأعداء الذين امتلأت قلوبهم من العداوة والبغضاء فظهرت على أفواههم: ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ

أَكْبَرُ﴾ مما يسمع منهم، فلهذا: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي: لا يقصرون في حصول الضرر عليكم والمشقة، وعمل الأسباب التي فيها ضرركم ومساعدة الأعداء عليكم. قال الله للمؤمنين: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ أي: التي فيها مصالحكم الدينية والدنيوية: لعلمكم تعقلون فتعرفونها وتفرقون بين الصديق والعدو، فليس كل أحد يجعل بطانة، وإنما العاقل من إذا ابتلي بمخالطة العدو أن تكون مخالطة في ظاهره ولا يطلعه من باطنه على شيء ولو تملق له وأقسم أنه من أوليائه^(١).

كما جاء النهي عن موالاته المنافقين في قول الله جل شأنه: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨] ودُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ٨٨ - ٨٩].

وذلك أن قوما كانوا بمكة قد تكلموا بالإسلام، وكانوا يظاهرون المشركين فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم، فقالوا: إن لقينا أصحاب محمد عليه السلام فليس علينا منهم بأس، وأن المؤمنين لما أخبروا

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ١٤٤ بتصرف يسير جدا.

عشرة سورة، هذا في الحديث عن المنافقين باسمهم ووصفهم الصريح (النفاق).

يضاف إلى هذا حديث آخر مطول عمن وصفوا في القرآن بـ ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ وهم الرديف والمدد، والمخزون الطويل الأمد لمعلومي المنافقين؛ فقد ذكر القرآن مرضى القلوب في اثنتي عشرة آية ضمن اثنتي عشرة سورة، وكل آية ذكر فيها ذلك تتعلق بها آيات أخرى.

والتأمل في حديث القرآن عن مرضى القلوب يمكنه أن يستتج أن هؤلاء لديهم الاستعداد لأن يكونوا منافقين معلومي النفاق بما لديهم من أمراض الشهوة أو الشبهة؛ فهم قوم ضعاف الإيمان إلى أدنى حد، حتى إن أحوالهم تكاد تنقلب أو تنقلب إلى معسكر النفاق الصريح، لفرط قنوطهم وقلة يقينهم، ولشدة تعلقهم بالدنيا وحرصهم على الجاه، أو لمزيد شحهم الخال وجبنهم الهال الذي يجعلهم كلما خيروا بين الانتصار للدين والقيم أو الانتصار للناس أو النفس ما ترددوا في الانحياز إلى ما يخدم مصالحهم العجلى فقط؛ ولذلك قرن الله مرض القلوب بالمنافقين في أكثر مواضع القرآن.

يقول الفخر الرازي: أعلم الله تعالى رسوله بعداوتهم فقال: ﴿هُرَّ الْعَدُوِّ فَاحْذَرهُمْ﴾ أن تأمنهم على السر ولا تلتفت إلى ظاهريهم

أنهم قد خرجوا من مكة قالت فئة من المؤمنين: اركبوا إلى الخيباء فاقتلوه، فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم، وقالت فئة أخرى من المؤمنين: سبحان الله أو كما قالوا تقتلون قوماً قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به من أجل أنهم لم يهاجروا، ويتركوا ديارهم، تستحل دماؤهم وأموالهم لذلك، فكانوا كذلك ففتين... فنزلت الآية تقرر نفاقهم وكفرهم وأن الله تعالى أركسهم أي: ردهم إلى أحكام أهل الشرك في إباحة دمائهم وسبي ذرائعهم^(١).

ثانياً: الحذر منهم:

قال الله تعالى في المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ خُسْفٌ مُّسْتَدَّةٌ بِحُشُونٍ كُلِّ صَبِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُرِّ الْعَدُوِّ فَاحْذَرهُمْ فَنَقِلَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَزُفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

وقد أفاضت نصوص الوحي - كتاباً وسنة - في تحذير المؤمنين من النفاق وأهله، بعد إسهاب طويل في كشف خباياهم وفضح نواياهم وهتك أسرارهم وطواياهم، حتى إن آيات الكتاب قد صرحت بذكر النفاق والمنافقين في نحو سبع وثلاثين آية، وفصلت وفرعت في الكلام عنهم في أضعاف ذلك من الآيات موزعة على إحدى

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ١٠٢٣.

فإنهم الكاملون في العداوة بالنسبة إلى غيرهم^(١).

وقال ابن عاشور رحمه الله في تفسير تلك الآية: والتعريف في ﴿الْعَدُوُّ﴾ تعريف الجنس الدال على معين، لكمال حقيقة العدو فيهم، لأن أعدى الأعداء: العدو المتظاهر بالموالاة وهو مداح، وتحت ضلوعه الداء الدوي، وعلى هذا المعنى رتب عليه الأمر بالحذر منهم^(٢).

ولم يجاف ابن عاشور الحقيقة عندما أرجع وصف القرآن للمنافقين بـ ﴿الْعَدُوُّ﴾ إلى «كمال حقيقة العدو فيهم»، وكيف لا تكمل حقيقة العداة في هؤلاء وهم كما قال ابن الجوزي رحمه الله: «عيون الأعداء على المسلمين»^(٣).

لا بل إن هؤلاء ليسوا فقط عيون الأعداء بل قلوبهم وألستهم، كما ذكر الإمام الطبري في تفسير ﴿هُرُّ الْعَدُوِّ﴾ حيث قال: «هم العدو يا محمد فاحذرهم؛ فإن ألستهم إذا لقوكم معكم وقلوبهم عليكم مع أعدائكم، فهم أعين لأعدائكم عليكم»^(٤).

ثالثاً: النهي عن مجالستهم:

قال الله جل شأنه: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ

فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْتُمْ إِذَا مَثَلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾

[النساء: ١٤٠].

والمعنى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾: يا معشر المسلمين بمكة ﴿فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ﴾: يعني: القرآن ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي: يأخذوا في حديث غير الاستهزاء بمحمد وأصحابه والقرآن. وذلك إن المنافقين كانوا يجلسون إلى أحبار اليهود فيستهزئون بالقرآن ويكذبون به ويحرفونه عن مواضعه فنهى الله تعالى المسلمين عن مجالستهم ومخالطتهم، والذي نزل في الكتاب قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨]^(٥).

وقد كان بعض المسلمين في المدينة يجلسون في مجالس كبار المنافقين - ذوي النفوذ - وكان ما يزال لهم ذلك النفوذ. وجاء المنهج القرآني ينه في النفوس تلك الحقيقة.. حقيقة أن غشيان هذه المجالس والسكوت على ما يجري فيها، هو أولى مراحل الهزيمة. وأراد أن يجنبهم إياها.. ولكن الملابسات في ذلك الحين لم تكن تسمح بأن يأمرهم أمراً بمقاطعة مجالس

(٥) الكشف والبيان ٣/ ٤٠٣.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٤٧.

(٢) التحرير والتنوير ٢٨/ ٢٤١.

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٨/ ٢٨٦.

(٤) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٩٦.

يجيب دعوة الله، وينقاد لحكمه، فإن هذا، يجاهد ويغلب عليه^(٢).

ونحن عندما نقرأ السيرة النبوية. نجد أنه صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة، ظل فترة طويلة يلاين المنافقين، ويغض الطرف عن رذائلهم، ويصفح عن مسيئتهم.. إلا أن هذه المعاملة الحسنة لهم زادتهم رجسا إلى رجسهم.. لذا جاءت هذه السورة - وهي من أواخر ما نزل من القرآن - لتقول للنبي صلى الله عليه وسلم: لقد آن الأوان لإحلال الشدة والحزم، محل اللين والرفق، فإن للشدة مواضعها وللين مواضعه..

قال الإمام ابن كثير: أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بجهاد الكفار والمنافقين، كما أمره أن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين.. وقد ورد عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب أنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعة أسياف. سيف للمشركين ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وسيف للكفار أهل الكتاب ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [التوبة: ٢٩].

القوم إطلاقاً. فبدأ يأمرهم بمقاطعتها حين يسمعون آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها.. وإلا فهو النفاق.. وهو المصير المفزع، مصير المنافقين والكافرين: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِتْلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُتَّقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

والذي تحيل إليه الآية هنا مما سبق تنزيهه في الكتاب، هو قوله تعالى في سورة الأنعام وهي مكية: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]^(١).

رابعاً: جهادهم والغلبة عليهم:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَأْمُرْهُمْ بِجَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

وهنا يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بجهاد الكفار والمنافقين، والإغلاظ عليهم في ذلك، وهذا شامل لجهادهم بإقامة الحجة عليهم، ودعوتهم بالموعظة الحسنة، وإبطال ما هم عليه من أنواع الضلال، وجهادهم بالسلاح والقتال، لمن أبى أن

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٧٤.

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٢٦٤.

خطر النفاق والمنافقين على الأمة

حذر القرآن الكريم من النفاق وصفات المنافقين في آيات كثيرة، فكان الحديث عن النفاق والمنافقين في القرآن في سبع عشرة سورة مدنية من ثلاثين سورة، واستغرق ذلك قرابة ثلاثمائة وأربعين آية، وبشتى الصيغ والأساليب، وفي كل مواقفهم الصغيرة والكبيرة، وفي كل أحوالهم الظاهرة والباطنة. حتى قال ابن القيم رحمه الله: (كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم) (١).

وقد تولى الله تعالى حماية المسلمين من هذا العدو الخفي المخادع؛ فأنزل في كتابه الكريم بياناً شاملاً لأحوالهم وأوصافهم، وكشف أقوالهم وأفعالهم، وفضح مؤامراتهم، واستخرج مكنونات صدورهم التي تغلي بها نفوسهم.

وخطر المنافقين على الأمة في القديم والحديث كبير، وفتنتهم شديدة؛ فما تمكن الكفار من بلدان المسلمين سواء من الناحية العسكرية أو الفكرية إلا عن طريقهم.

وخطر المنافقين ينطلق من الداخل بين صفوف المسلمين، بينما يجيء خطر الكفار الظاهرين من الخارج، وخطر الخارج لا يستفحل دائماً إلا بمساندة من الداخل.

وبلية الإسلام بالمنافقين شديدة جداً؛

وسيف للمنافقين ﴿جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣].

وسيف للبلغاة ﴿فَقَاتِلُوا آلِي بَنِي نَفْيَاءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيف إذا أظهروا النفاق، وهو اختيار ابن جرير (١). وقال ابن مسعود في قوله: ﴿جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ قال: بيده، فإن لم يستطع فليكهف في وجهه - أي: فليلق المنافق بوجه عابس لا طلاقة فيه ولا انبساط. وقال ابن عباس: أمره الله تعالى بجهاد المنافقين باللسان وأذهب الرفق عنهم.

وقد يقال: إنه لا منافاة بين هذه الأقوال، لأنه تارة يؤاخذهم بهذا، وتارة بهذا على حسب الأحوال (٢).

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٧٨/٤.

(٢) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٢٠٠٠/٤.

(٣) مدارج السالكين، ٣٤٧/١.

وأعداء الأمة أكثر، ولكن حصر العداوة في المنافقين يراد به إثبات الأولوية والأحقية للمنافقين في هذا الوصف، ولا يراد منه أنه لا عدو لكم سواهم، بل على معنى أنهم أحق أن يكونوا لكم عدوًا من الكفار المجاهرين بكفرهم، فإن الحرب مع هؤلاء ساعة أو أيامًا ثم تنقضي ويعقبها النصر أو الظفر، أما هؤلاء فهم معكم في الديار والمنازل صباحًا ومساءً، يدلون العدو على العورات، ويتربصون بالمؤمنين الدوائر، ولا يمكن بل تصعب مناجزتهم^(٢).

ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر، والمراد: إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، لا على معنى أنه لا عدو لكم سواهم، بل على معنى أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدوًا من الكفار المجاهرين، فإن الحرب مع أولئك ساعة أو أيامًا، ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر، وهؤلاء معهم في الديار والمنازل، صباحًا ومساءً، يدلون العدو على عوراتهم، ويتربصون بهم الدوائر، ولا يمكنهم مناجزتهم.

ولأنما كانت هذه الطبقة في الدرك الأسفل من النار لغلظ كفرهم، فإنهم خالطوا المسلمين وعاشروهم، ووصل إليهم من معرفة الإيمان ما لم يصل إلى المنافذين بالعداوة، فإذا كفروا مع هذه المعرفة والعلم

لأنهم منسوبون إليه، وهم أعداؤه في الحقيقة، يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه علم وصلاح، وهو غاية الجهل والإفساد. فله كم من معقل للإسلام قد هدموه، وكم من حصن له قد اقتلعوا أساسه وخربوه، وكم من علم له قد طمسوه، وكم ضربوا بمعاول الشبه في أصول غراسه ليقلعوها، فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية، ولا يزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية، يزعمون أنهم بذلك مصلحون ﴿آلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢] (١).

وتصرفات المنافقين تدور مع مصالحهم فإذا لقوا المؤمنين أظهروا الإيمان والموالة غرورًا منهم للمؤمنين، ومصانعة، وتقية، وطمعًا فيما عندهم من خير ومغانم.. وإذا لقوا سادتهم وكبراءهم قالوا: نحن معكم على ما أنتم عليه من الشرك، والكفر كما قال سبحانه عنهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شُيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

والمنافقون لفساد قلوبهم أشد الناس إعراضًا عن دين الله كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِّقِينَ يُصَدُّونَ عَنْكَ صُذُودًا﴾ [النساء: ٦١].

(١) المصدر السابق.

(٢) الغارة على العالم الإسلامي ص ١٢٦.

كانوا أغلظ كفراً، وأخبت قلوباً، وأشد عداوة لله ولرسوله وللمؤمنين من البعداء عنهم.
قال تعالى عن المنافقين: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَغَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِم فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣].

والسرفي أن عداوة المنافقين أشد وأخطر من عداوة الكافرين: أن عداوة المنافقين شاملة لا تقتصر على جانب دون جانب، فهي تبدأ من الكلمة همزاً ولمزاً وسخرية وغمزاً، وتنتهي إلى الخيانة العظمى بالقتال في صف الكفار وتحت راياتهم والتآمر معهم على المسلمين وكشف أسرارهم.

وأن جهاد الكفار قد يكون عينياً أو يكون كفائياً، وقد يسقط بالأعداء أو الإعداء، أما جهاد المنافقين فهو غير قابل للسقوط إذا وجدت مسوغاته، فهو واجب على كل مكلف بحسبه، ففي الحديث عن ابن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسننه ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل) (١).

لهذا فإن جهاد المنافقين المأمور به في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُم جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]. يبدأ بالقلب حتى ينتهي إلى السيف.

وفي هذا المنعطف الخطير من تاريخ الأمة الإسلامية وفي هذا الوقت العصيب الذي تداعت عليها الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها.. يدرك المتأمل في واقع المسلمين أن أعظم معوق لإحراز النصر لأمة الإسلام هم المنافقون.

والملاحظ لأحوال المنافقين يدرك كيف يتزلفون لأهل الكفر، ينفذون مخططاتهم ويقومون بما يعجز الأعداء عن القيام به بل ويكفونهم في كثير من الأحيان مثونة الاقتتال، يستجلبون عطفهم ورضاهم ويطلبون منهم العون لقتل ذويهم وبني قومهم، ويوالون ويعادون عليهم ويحبون ويكرهون لأجلهم، ولا نبالغ إذا قلنا: أنهم في سبيل جلب رضاهم يساهمون بشكل فعال في تخريب بلادهم وتدمير اقتصادهم وإهلاك حرثهم ونسلهم، ناهيك عن دورهم في حجب نور الله وإقامة دينه. والتمكين في مقابل ذلك لأعداء الإسلام (٢).

باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، ٥٠/١.

(٢) انظر: الغارة على العالم الإسلامي ص ١٢٥.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان،

الوجه في الانبساط والتمدد، أو الانقباض والتغضن، والأليم: الشديد الألم^(٢).

وقد قضى الله أن مصير الكافرين والمنافقين إلى جهنم: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

لكن المنافقين لعظيم ضررهم في أسفل النار كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

وهنا يخبر جل شأنه، عن مآل المنافقين، أنهم في أسفل الدركات من العذاب، وأشر الحالات من العقاب. فهم تحت سائر الكفار، لأنهم شاركوهم بالكفر بالله، ومعاداة رسله. وزادوا عليهم المكر والخديعة، والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين، على وجه لا يشعر به ولا يحس. ورتبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم، واستحقاق ما لا يستحقونه. فبذلك ونحوه، استحقوا أشد العذاب. وليس لهم منقذ من عذابه، ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه. وهذا عام لكل منافق^(٣).

ومعنى الدرك الأسفل: أي: البطن ﴿الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ أي: لأن ذلك أخفى ما في النار وأستره وأخبثه كما أن كفرهم

وعيد الله عز وجل للمنافقين

جاء وعيد الله تعالى للمنافقين في مواضع عديدة من كتاب الله، وبصور متنوعة ومعبرة.

من ذلك قول الله جل شأنه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ لَئِبِهِمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨].

وهنا يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبر المنافقين بلفظ البشارة؛ لأن المخبر به يسوء وجوههم وهو العذاب الأليم، وقد يكون في الدنيا بالذل والمهانة والقتل، وأما في الآخرة فهو أسوأ العذاب وأشدّه، وهو لازم لهم لخبث نفوسهم وظلمة أرواحهم^(١).

والغالب في استعمال البشارة أن تكون في الإخبار بما يسر، فهي إذا مأخوذة من انبساط بشرة الوجه، كما أن السرور مأخوذ من انبساط أساريه، وعلى هذا يقولون: إن استعمالها فيما يسوء - كما هنا - يكون من باب التهكم، وقيل: إن البشارة تستعمل فيما يسر وفيما يسوء استعمالاً حقيقياً؛ لأن أصلها الإخبار بما يظهر أثره في بشرة

(٢) تفسير المنار ٣٧٦/٥.

(٣) فيض الرحمن تفسير جواهر القرآن ١١٦/٢.

(١) أيسر التفاسير ٥٥٨/١.

أخفى الكفر وأخبثه وأستره. وسميت طبقات النار دركات؛ لأنها متداركة متتابعة إلى أسفل كما إن الدرج متراقية إلى فوق^(١). إنه مصير يتفق مع ثقله الأرض التي تلصقهم بالتراب، فلا ينطلقون ولا يرتفعون، ثقله المطامع والرغائب، والحرص والحذر، والضعف والخور! الثقله التي تهبط بهم إلى موالاة الكافرين ومداراة المؤمنين، والوقوف في الحياة ذلك الموقف المهيمن:

﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

فهم كانوا في الحياة الدنيا يزاولون تهيئة أنفسهم وإعدادها لذلك المصير المهيمن في ﴿الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ بلا أعوان هنالك ولا أنصار وهم كانوا يوالون الكفار في الدنيا، فأنى ينصرهم الكفار؟^(٢). نسأل الله العظيم أن يرزقنا الصدق والإخلاص، وأن يجنبنا الشرك والنفاق، وأن يختم لنا بالخير. وبالله التوفيق.

موضوعات ذات صلة:

الأمانة، الخيانة، الرياء، الشرك، الكذب

(١) السراج المنير ١/ ٢٧٢.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٢٦٩.